

لغة الألوان

رجعت في الصيف الماضي إلى دفاتر قديمة دونت فيها خواطر رحلة إلى أوروبا سنة ١٩٣٤ فأعدت النظر في هذه الخواطر استعداداً لجمعها في كتاب ، فوجدت في الكلام على انتقالني من باريز الى جنيف هذه العبارة :

« ما هذا الورق ! ما هذا الشجر ! ما هذه الألوان التي لا أعرف لها أسماءً في لغتنا ، فمن أصفر فاقع الى أبيض ناصع ، ومن أحمر قانيء الى أخضر ناضر ، ومن لون زهري الى لون وردي ... » .

ولما فرغت من قراءة هذا المقطع خطر ببالي أني إذا كنت قد اهتديت الى بعض صفات الألوان الصفرة والبيضاء والحمر والأخضر فهل أهتدي إلى صفات تميّز ما يخالط هذه الألوان في بعض الحالات من ألوان ثانية ، فأوحى إليّ هذا الخاطر موضوع : لغة الألوان ، وقد كنت قبل التفكير في هذا

— ١٩٧ —

الموضوع أطالع كتاباً اسمه : الفن والأدب ، لصاحبه « لويس هورتيك » كلفت وزارة الثقافة والإرشاد القومي الدكتور بدر الدين قاسم الرفاعي أن يترجمه ، لقد مررت في الفصل الأول من فصول الكتاب بمقاطع تشير إلى تعبير الألفاظ عن الألوان ، جاء في بعضها ما يلي : « ولعل الألفاظ في بعض اللغات الأخرى قادرة على إدراك الملامح اللونية على نحو أقرب مما تدركه اللغة الفرنسية ، فأهل الصين حينما يميزون ألوان أوانبهم ، والعرب حينما يصفون أنفسهم يستخدمون تعابير تصويرية مشتقة من مفردات تذكرنا بأوراق الزهر والحجارة الكريمة ولعة الحرير وبريق السماء ، وتمكينهم من بيان الفروق الضئيلة في مجموع الأصباغ ...» الى آخر ما ورد في هذا المقطع ؛ وقد نقلت الكلام على نحو ما ورد دون زيادةٍ أو نقصان حرصاً على الأمانة .

لقد زاد هذا المقطع في حملي على الخوض في موضوع : لغة الألوان ، غير أنني ما أظن أنني قادر على إشباع القول في مثل هذا الباب نظراً إلى دقته ، إذ أن ما غرّب به من ألوان الطبيعة في حياتنا وما نشأ من الألوان التي تولّدها الكيمياء في هذا العصر قد يحملنا على أن نسأل : هل نجد في لغتنا مفردات دقيقة تميّز هذه الألوان أصحّ تمييز ، كما جاء في كتاب الفن والأدب ؛ وإذا كنا نجد في لغتنا ألفاظاً تصوّر أمّهات الألوان البسيطة ، مثل البياض والسواد والحمر والخضرة وما شابه ذلك فهل نجد في هذه اللغة الشريفة ألفاظاً تميّز ما يخالط هذه الألوان في بعض الحالات ؟ فقد غرّب مثلاً بلون أحمر فنقول : إنه أحمر ، وإذا اشتدت حمرة قلنا : إنه أحمر قانيء ؛ ولكن هذه الحمر قد تنتقل الى ألوان كثيرة فنحار في الاهتمام الى الألفاظ التي تعبّر عن هذه الألوان المختلفة . وما يقال في الحمر يقال في غيرها من الألوان كالخضرة والصفرة والبياض والسواد وأشباهاها .

إني أكتب هذا المقال وأنا أضرب بعيني في حديقة الدار التي أسكنها ،
فتقع هذه العين في هذا الشهر ، شهر تشرين الثاني ، على أنواعٍ من الشجر ،
مثل التفاح والجوز والشمس والكرز والصنوبر والسرو وغيرها ، وكل نوعٍ
من هذه الأنواع أخضر اللون ، ولكي أرى أن هذه الخضرة مختلفة
الأشكال ، فلا تكاد واحدة منها تشبه الثانية ، فهل جاء في فقه اللغة ما يميّز
هذه الاختلافات ؟ ولعلّ الرجوع إلى فقه اللغة في هذا الباب يهدينا سوآء السبيل ؛
إنّا نجد في كتاب الإمام الثعالبي ، في الباب الثالث عشر من هذا الكتاب فصلاً
عنوانه : في ضروب من الألوان والآثار ؛ وأول هذا الفصل : ترتيب البياض ،
وقد أفاض الثعالبي في تقسيم البياض وتفصيله في الرجل والمرأة والحيوان والنبات
والمعادن والفواكه وغير ذلك . وقد ينكشف لنا مثل هذه الإفاضة في
تقسيم ألوان ثمانية كالسواد والحمره وغيرها . وإذا رجعنا إلى أمّهات الألوان
وجدنا في فقه اللغة ألفاظاً لكل لونٍ ولما يخالطه من ألوان ثمانية في بعض
الأحيان ؛ فإنّنا نجد مثلاً اسماً للرجل الأبيض بياضاً لا يخالطه شيء من الحمره
وليس بنيّ ولكنّه كلون الجص ؛ ثم نجد اسماً للرجل الأبيض بياضاً محموداً
يخالطه أدنى صفرةٍ كلون القمر والدرّ ، كما أنّنا نجد صفات في ترتيب السواد
وتقسيمه ولواحقه . وكذلك في ترتيب الحمره . وقد نعجب لأول وهلةٍ من
هذه الدقة في اللغة بحيث نقول : هل في لغةٍ من اللغات مثل هذه الدقة في
ترتيب الألوان وتقسيمها ولواحقها ؟ ولكن على الرغم من هذه الدقة العجيبة
إنّنا نحار ، ونحن نميّز بعض الألوان ، في الاهتمام إلى ألفاظ تعبّر عن هذا
التمييز ، فإذا رجعنا إلى خضرة الأشجار التي أشرت إليها في هذا المقال فهل
نجد اسماً لكل قسم من هذه الخضرة ، فإنّنا نرى مثلاً في فقه اللغة ، في الإشباع
والتأكيد ، هذا الكلام : أخضر ناضر ، فإذا قلنا : أخضر ناضر ، فقد

ندرك نضارة هذه الخضرة ولكن إذا لم يكن هذا الأخضر ناضراً وكان يخالطه شيء من مختلف الألوان فماذا نسميه؟ إني وأنا أكتب هذا المقال بمحض من أربعة أو خمسة ألوان من الخضرة، وكل لونٍ منها يختلف عن الآخر، كل لونٍ منها يخالطه لون آخر قد يكون أصفر أو أحمر، فماذا نسمي هذا اللون المركَّب من لونين أو أكثر؟

فها يستول علينا من الدهشة في الاهتداء إلى أسماء الألوان في لغتنا وإلى ترتيب هذه الألوان وتقسيمها فإثنا لا زال حائرٍ في تسمية بعض الألوان المركَّبة ولا سيما في عصرٍ استفاضت فيه الكيمياء وكثر ما نشأ عن هذا العلم من مختلف التلوين، فان لغتنا في القديم لم تضع إلا ألفاظاً للألوان التي كانت تقع عليها العين، إلا أن الألوان في هذا العصر قد كثرت وتشابكت وخالط كل لونٍ منها لون آخر؛ ثم إن الأزاهير قد كثرت أنواعها وتباينت ألوانها، فإذا كثرت ألباناً لالألوان الورد والياسمين والبنفسج وأمثالها فإثنا لا نجد أسماءً للأزاهير التي نبتت في بعض الأمصار ولا للألوان التي تخالط ما نبت من هذه الأزاهير.

وكيف كان الأمر فإذا ملنا إلى المساحة في كل هذه المشاهدات فهل نحن نستعمل في كتابتنا وشعرنا الألفاظ التي دونها لنا فقه اللغة في باب الألوان وترتيبها ولواحقها؟ فلو كنا نستعمل هذه الألفاظ لكان في كتابتنا وشعرنا دقة أكثر في التعبير. إثنا نرى مثلاً في ترتيب سواد الإنسان أنه إذا زاد سواده مع صفرة تعلوه فهو: أصحم، وإن اشتد سواده فهو: أدلم، فمن الذي في هذا العصر يستعمل هاتين الصفتين؟ من الذي يقول: إنسان أصحم أو أدلم؟ فالذنب ذنبنا في قلة الدقة في تعبيرنا وليس بذنب اللغة.

فإن اللغة إذا كانت لم ترشدنا إلى ألفاظٍ تميّز بعض الألوان فإنها قد أرشدتنا إلى ألفاظٍ كثيرة في تمييز الألوان وترتيبها وتقسيمها ، فما ذنب هذه اللغة المديدة الرحبة إذا كنتنا نجعل ما أعطتنا ؟ أم ما ذنبها إذا كنتنا نعلم فضلها ونحن نهاب الأخذ بهذا الفضل ؟

وخلاصة القول إذا كنتنا من جهةٍ نحار في الظفر بألفاظٍ تفصح عن طائفة من الألوان واختلافاتها فائتاً من جهةٍ ثانية نفخر بتدوين ألفاظٍ في فقه لغتنا تفصح لنا عن تفصيل الألوان وتقسيمها وترتيبها ممّا لا نظير له في كثيرٍ من اللغات على ما أظن !

شفيق جبري

